الخدمات الاجتماعية

وما ترمى إليه

بقلم الدكتورة نعيمة الأيوبى المحامية

دعانى إلى بحث هذا الموضوع ، حداثة عهد مصر به ، وخفاء معانيه ومراميه على أكثر الأذهان فى بلادنا . وللجمهور المصرى عذره إذا هو لم يستوعب معنى "الخدمات الاجتماعية" ، إذ ما دام الإنسان يعيش فى مجتمع ، فقد يسبق إلى ذهنه أن كل عمل هو عمل اجتماعى ، أى أن أعمال السكك الحديدية ، والبريد ، والنقل ، والرى ، والتنظيم ، والزراعة ، والطب ، والمحاماة ، وغيرها . كلها أعمال اجتماعية .

لكن "الخدمات الاجتماعية" لا تشمل هذا المعنى الواسع ، وإنما هى تعبير حديث ، أطلق منذ نحو ستة وثلاثين عاما على ما عرف حتى القرن التاسع عشر بأعمال الإحسان ، أو الإعانة ، أو المساعدة . والفرق بين هذا التعبير العام ، المعروف بأعمال الإحسان ، وبين التعبير الجديد المعروف فى القرن العشرين "بالخدمات الاجتماعية" ، أن الإحسان كان قائما على مجرد الرغبة الطيبة فى عمل الخير ، وأهم مظاهره توزيع النقود والمآكل على الفقراء ، وإنشاء الملاجئ للعجزة والأيتام ، والقائمون بهذه المبرات فى أكثر الأحيان هم أشخاص خيرون متطوعون .

أما "الخدمات الاجتماعية" بوضعها الحديث ، فقائمة على الرغبة فى عمل الخير بطرق علمية منظمة حديثة ، وبعد بحث وإحصاء وتجارب . والإحسان كما عرف فيما مضى ، إنما كان يعنى بسد حاجات مؤقتة ، أو تقديم علاجات مسكنة ، فالفقير الذى يأكل اليوم لا يدرى من أين يجد طعامه غدا .

أما "الخدمات الاجتماعية" فهى الجهود التى لا تقف عند هذا النوع من المسكنات ، تقدمها الى الأفراد والأسر بعد القيام ببحث اجتماعية عن حالتهم ، بل ترمى — فوق ذلك — الى تمكين هؤلاء الأفراد وتلك الأسر من السير فى الحياة دون حاجة الى العون ، وذلك بأن تسدى اليهم مساعدة شافية لا موقوتة .

وعدا ما تقدم فالخدمات الاجتماعية ترمى الى وقاية الأفراد والأسر من الانحدار والانحطاط ، ومن المصائب والأخطار الاجتماعية ، كالأمراض ، والبطالة ، والفقر ، والفساد الخلقى ، ثم أنها تعمل ، بعد هذا وذاك ، على تحسين الحالة العامة ، والارتفاع بالمستوى الاجتماعى الى درجة أعلى وأكمل .

فاذا أصيب عامل بالشلل ، فعجز عن العمل ، أخذت أسرته تعانى الفقر والعوز ، فان عاطفة الإحسان الساذجة تكتفى فى هذه الحالة بإعطائها نقودا للطعام واللباس ودفع أجر

المسكن ، ولكن هذا لا يقيل عثرة تلك الأسرة ولا يضمن لها حياة آمنة مستقرة ، إنما الذى يضمن هذا هو "الخدمات الاجتماعية" فهى تبحث عن الأسباب فتعالجها ، وهى تنظم هنا الإحسان المبعثر ، وذلك بأن تعالج العامل المريض ليستعيد قوته وقدرته على العمل وعلى اكتساب الرزق . وتظل تعول أسرته الى أن يتم شفاؤه ، فاذا ما شفى علمته عملا بسيطا يتفق مع حالته الصحية الجديدة ، وهكذا تعود الأسرة شيئا فشيئا الى حالتها الطبيعية . وهكذا لا تكون المساعدة كما قلنا مجرد علاج مسكن ، بل تقويما لحياة الفرد والأسرة معا .

وتذهب "الخدمات الاجتماعية" الى حماية الأسرة ، فتراعى إسكانها فى مسكن نظيف تدخله الشمس ، وتعلم أفرادها طرق الوقاية ، والحياة فى الهواء الطلق ، وقد تذهب "الخدمات الاجتماعية" الى العمل على إنشاء جماعات تعاونية وصناديق تأمين وتوفير ، وملاعب رياضية وحمامات للسباحة ومراكز اجتماعية للثقافة ، ومن شأن هذا كله أن يحسن حال الأسرة ويسمو بمستوى الحياة .

ولقد تغيرت الفلسفة الاجتماعيـة فى العصر الحديث ، فبعد أن كان الإحسان تفضلا من الخيرين يعود الفقراء الكسل والخمول ويشجعهم على الاستجداء ، ويقتل فيهم الكبرياء والكرامة ، أصبحت "الخدمات الاجتماعية" قائمة على التضامن الاجتماعى ، باحياء الضمير الاجتماعى ، وأصبح غرضها انتشال الفرد ، ليكون قادرا على حمل الأعباء ، وليقوم بنصيبه من العمل فى الحياة مصون الكرامة .

وبعد أن كان موقف الحكومات فى هذا الميدان يكاد يكون سلبيا ، اذ كانت تكله الى نشاط الأفراد والجماعات ، أخذت تشعر بأنها ما دامت تطالب الفرد بالدفاع عن كيان الدولة فى أزمان الحروب ، وتجبى منه الضرائب ، وتعاقبه إذا أفسد الأمن أو اقترف الجرائم ، فعليها له حقوق يجب أن تؤديها كما تؤدى بقية واجباتها المتعلقة بالمواصلات والأشغال والتعليم وغيرها . وهذه الحقوق تمس الفرد فى صميم حياته ، فى صحته ، فى تعيمه ، فى حالته الاقتصادية ، وبالجملة فى تمكينه من أن يحيا حياة طيبة . ولقد شعرت الحكومات بأنها فى قيامها للأفراد بهذا الواجب الجديد الحيوى ، تحمى كيان الدولة من الفسـاد والانهيار ، لأن الأفراد هم الذين يتكون منهم جسم الأمة ، فاذا انحط مستواهم المعيشى والتعليمى والخلقى والاقتصادى ، انحطت الدولة نفسها واضمحلت .

لذلك ساهمت الحكومات بقسط وافر فى الخدمات الاجتماعية ، وأنشأت فى مختلف الجهات مكاتب حكومية "للخدمات الاجتماعية" ، ووضعت القوانين والتشريعات وأقامت الكثير من المنشآت ، وقامت وزارات الشؤون الاجتماعية للإشراف على هذا النشاط وتوجيهه وتحسينه . وبعد أن كنا لا نجد من مظاهر الإحسان إلا توزيع الطعام والنقود على الفقراء والمساكين ، وإنشـاء الملاجئ للعجزة والأيتام واللقطاء ، أصبحنا نرى آلاف المنشآت

والأعمال الاجتماعية ، سواء قام بها الأفراد أو الجماعات أو الحكومات ، فرأينا ملاجئ للعاجزين وللصم والبكم والعمى والكتع وسواهم ، يتعلمون فيها مهنا تكفل لهم الرزق .

ورأينا منازل لإيواء الأطفال الرضع ، يتمضون فيها النهار كله أثناء عمل أمهاتهم ، والليل أحيانا ، وأخرى لغير الرضع ، ومنازل لراحتهم والترفيه عليهم ، أو لاصطيافهم ، ومستعمرات لحماية الضعاف منهم من الأمراض ، ومصحات لمن كان أبواه مصابين بالسل ، وأخرى للأطفال الشواذ أو المتأخرين عقليا أو صحيا ، ومثلها للأطفال المحرومين من العطف الأبوى بسبب فساد جو الأسرة ، وإصلاحيات للجرمين الأحداث ، ومراكز لمراقبة رضاعة الأطفال وتوزيع الألبان الجافة والملابس عليهم .

ورأينا نشاط الحكومات فى الأساليب الواقية ، من تعليم إلزامى لإنارة عقول جميع أفراد الشعب ، الى توسع فى بث طرق الوقاية ، وفى إنشاء المستشفيات والمصحات للسل الرئوى وغيره ، والمصحات المجانية ، والعيادات البسكولوجية فى المدارس والسجون والأحياء ، ومنازل الولادة للعاملات والفقيرات ، والعيادات الخاصة لمكافحة الأمراض العامة أو الأمراض الاجتماعية المنتشرة ، وفى نشر نظام الزائرات الصحيات ، والمساعدات الاجتماعيات (وأولئك اختصاصيات درسن الخدمة الاجتماعية ثلاث سنوات) .

وعدا ذلك ما تقوم به الحكومات من الخدمات للأفراد ، من التعليم المهنى والتوجيه المهنى ، ومساعدة الأسر الفقيرة الكبيرة العدد ، وإعطائها بعض الامتيازات فى السكنى والسفر والنقل والمتاحف وغيرها ، وإنشاء الملاجئ الليلية لمبيت من ليس لهم محل إقامة ، وبناء المنازل الرخيصة ومساكن الراحة والاصطياف للعمال والفقراء ، والمستعمرات لإصلاح المشردين وتعليمهم حرفا تناسب حالتهم النفسية ، وتنظيم صناديق التوفير والتعاون والتأمين سواء أكان إجباريا شاملا لجميع أفراد الدولة ، أم اختياريا ، وسواء أكان للأفراد عموما أم للعمال .

وقامت الخدمات الاجتماعية فى المستشفيات والمصحات والسجون والمدارس والمصانع والمحلات التجارية ومساكن الطلبة والطالبات وأنديتهم ، والأندية العامة ، والمطاعم الشعبية ، ومستعمرات عصبيى المزاج ، والملاعب الرياضية ، ومراكز الاجتماعية فى المدن وفى الريف ، الى غير ذلك مما يضيق المجال عن حصره ووصفه .

ولا يفوتنى أن أذكر أن " الخدمات الاجتماعية " بوضعها الحديث ، قد استلزمت تعديل وإنشاء الكثير من القوانين الاجتماعية الخاصة بالفقراء والعمال والمرضى والعجزة والعجائز والأطفال والأحوال الشخصية من زواج وطلاق ونفقة وولاية ، ثم التأمين الاجتماعى ... الخ .

نعيمة الأيوبى